■■ الجدة الكبرى للقصة

« **احك لى حكاية** » عبارة تتردد على لسان الطفل فور أن يتعلم الكلام كما يقول شاعر الهند العظيم رابندرانات تاجور . لكن هل فكرنا يوما فى البحث عن جـــذور هذه العبارة ؟ . . لقد حاول تاجور نفسه أن يفسر نشأة الحكاية والحاجة اليها فكتب مقالا قصيرا طريفا باللغة البنغالية ، نقله الى الانجليزية بهابانى بهاطاشاريا وصدرت به سلسلة « سيجنت » الأمريكية أحد منتخباتها من القصص العالمى .

وقد اتخذ تاجور العبارة السابقة عنوانا لمقـــاله ، وراح باحساسه الشعرى يفسر القضية ، وان بدا فى تفسيرة شىء من المجاز فرضته عليه طبيعته الخياليـــة الرقيقة . فهو يعتقد أن ثمة صراعا فى رأس الطفل بين رغبته فى معرفة « **قصة الأمير وصديقه ابن الوزير فى سالف الأزمان** » من جدته ، والحاح المدرسين على حشو عقله بالمعلومات والحقائق . ولئن كان المدرسون ينتصرون على الجدة ويسكتونها الا ان رواة القصص والحكايات لا ينتهون ، بل يحل كل محل الآخر بلا نهاية . ورغم أن المحاولات لا تكف لاصلاح الطفل من المدرسة الابتدائية الى الثانوية ، ومن هذه الى الجامعة ، لكن ما من شىء بقادر على الوقوف فى سبيل حاجته التى تلخصها عبارة « احك لى حكاية » ـ .

ان الحكايات والقصص كما يقول تاجور تتواتر من عام لآخر فى كافة انحـــاء الأرض ، وفى كل بيت كتابة او شفاهة ، وتثقل كفتها وترجح على كل تراث آخـــر

للانسان ، والله جل جلاله فنان مبدع خلق الانسان الذى تحركت حياته منذ البدء داخل مواد القصة وعناصرها ، داخل دوامات انشأها الصراع بين العاطفة والعاطفة، بين الفرد والمجتمع ، بين العقل والجسد ، بين الرغبة والاباء .

واذا كان النهر مجرى جاريا للماء فكذلك الانسان مجرى جار للقصة . ذلك لانه حين يلتقى شخصان فان سؤالا بعينه لا يلبث ان يحل متخذا احدى صيغتين :

- **ما الأخبار ؟**
- **ماذا من احداث ؟**

أما اجابات هذا السؤال بصيغتيه فقد نسجت شبكة تعم الأرض وتغطيها وهى شبكة تشكل قصة الانسان وتاريخه الحقيقى ، ذلك التاريخ الذى تشارك فيه القصة جنبا الى جنب مع الأبطال الذين يصنعونه .

لكن ، هل يغنينا ما قاله تاجور بأسلوبه المجازى هذا عن تتبع المزيد من الضوء على الحكاية الشعبية المنطوقة التى تعتبر اليوم أصلا ثابتا من أصول القصة المكتوبة بشكلها الحديث ؟ .

لقد جمع دارس أمريكى ، هو ميلتون روجف ، نحو مائتى حكاية شعبية مسجلة ومترجمة عن لغات مختلفة لشعوب مختلفة فى افريقيا وأوربا وآسيا والأمريكتين وحاول ، أن يقدم هذه المجموعة المتنوعة ، فكتب لها مقدمة بعنوان « ملحوظة فى الحكايات الشعبية » ، فماذا قال ؟ ..

طبيعى أن يستهل روجف مقدمته بالاعتراف بقدم الحكايات الشعبية وعراقتها ، واتساع مجال جاذبيتها ، ومن ثمة فهو يؤكد بالتالى أن هذا الجنس الأدبى المتميز لا يرتبط بزمن معين ولا بمكان معين من حيث النشـــأة والولادة ، وانه اذا كانت الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والشعر لا تشتهر الا بين القلة المتأدبة ، اى بين جمهور محدود ، فان جمهور الحكاية الشعبية هو البشرية جمعاء .

ولعل المرء لا يملك ــ كما يقول روجف ــ الا أن يعجب ويتساءل : من خلق هذه الحكايات ، ومتى ؟ لكن سؤالا كهذا بشقيه لم يجد حتى اليوم من يجيب عنه اجابة شافية . ذلك لأن الحكايات لا تنتمى لأفراد بقدر ما تنتمى الى جمـــاعات ، ولم تتداول أو تصلنا الا بطريق الكلمة المنطوقة ، مما يضيف اليها طابع السر المغلق الذى يشدنا دوما لاكتناهه .

وكثير من آثارها يظهر فى السجلات المصرية منذ الف وستمائة سنة قبل الميلاد ، وفى الكتابات والنقوش الهندية واليونانية والفارسية والعبرية قبل أكثر من الفى سنة . ومع هذا كله لا يستطيع احد ان يدلنا على عمرها الحقيقى .

وينتقل روجف الى قضية اصل الحكاية الشعبية ، فيقول أن البعض زعم أن اصلها خرافة من خرافات الطبيعة او اساطيرها ، ومحاولة بدائية لتفسير ظاهرة طبيعية ما ، فوليم تل مثلا لم يكن الا آخر انعكاس لاله الشمس الذى كان يضرب التفاحة او أى هدف آخر بقوسه الخارق الذى لا يخطىء . وزعم آخرون أن الحكاية

امتداد للأخيلة العملية الوحشية فى الانسان . بل ان البعض لازال يعتقد انها فى الأصل من وضع رواة قصص متأدبين محترفين ، وانها ابتذلت حين تداولتهـــا شعوب غير متحضرة ، أى انه كان لها مؤلفون معروفون طمسهم التداول الشعبى لها فى البيئات غير المتحضرة ، بل ان الكثيرين زعموا حين اشتد ساعد التحليل النفسى أن مصدرها الأحلام قياسا على استنتاجات فرويد وتلاميذه . ومع هذا كله انتهت هذه القضية دون اتفاق .

أما قضـــية المكان الذى نشأت فيه الحكاية فقد اختلف دعاتها كما اختلف زملاؤهم فى تحديد اصل الحكاية من الناحية الفنية . فقد اعتقد الاخوان جريم انها نشأت فى الأصل داخل ثقافة ذات أب اندوجرمانى ثم انتقلت الى الثقافات الأخرى وظن اندرولانج انها انبثقت فى عدة أمكنة وكان لها فى كل منها شخصية مستقلة . وزعمت مدرسة ثالثة أن الهند هى رحم الفن القصصى بأسره . ومرة أخرى انتهت هذه القضية بدورها دون نتائج محددة شافية .

غير أن الاهتمام الأدبى الواعى بالحكاية لم يبدأ فى الحقيقة كما يقول صاحب المقدمة الا فى مطلع القرن الثامن عشر . فقد نشر شارل بيرو مجموعة حكاياته الأولى المسماة « الأوزة الأم » عام ١٦٩٧ . وبعد سنوات نشر زميل فرنسى له هو أنطوان جالاند أول ترجمة لألف ليلة وليلة العربية . وأصبحت « الموضة » فى ذلك الحين هى الاغتراف من تراث الشرق ، وخاصة هذه الليالى العربية وما فيها من ثراء وخصوبة فى الخيال .. وتبع ذلك جمهرة من المجموعات المماثلة بلغت ذروتها فى المجلدات الواحد والأربعين من كتاب « كابينة الجن » . غير ان المجموعات التى تسعى الى تسجيل الحكايات كما يحكيها أصحابها لم تبدأ فى الظهور الا فى القرن التالى ، أى فى القرن التاسع عشر . وكانت أولاها عام ١٨١٢ للأخوين الألمانيين ولهلم وجاكوب جريم ، وبعدها تدفقت مجموعات وترجمات أخرى كثيرة ، حتى اصبحت الحكايات الشعبية اليوم وما تثيره من قضـــايا المكان والزمان والنشأة ، رغبة طلابية جامحة .

لكن هل توقفت الحكايات ؟ وهل اقتصرت على ما جمع وسجل منها ؟ .. ــ الجواب هو النفى القاطع بالطبع . ذلك لأن الناس والشعب لم تكف عن الحكى ، رغم أن الحكايات قد جعلت لدى الشعوب المتحضرة من نصيب الأطفال ، أو من نصيب الدارسين والطلاب ، ومن جهة أخرى أدى نشوء القصة الأدبيـــة المكتوبة وانتشارها فى القرن الماضى الى تقليل الاهتمـــام بالحكايات المنطوقة أو مطالعتها مسجلة ومكتوبة .

وقد نتساءل مرة أخرى : ان عالم تخلقه الحكايات ، أو ما عالمها ؟ وللاجابة على هذا السؤال ينبغى أن نضع فى اعتبارنا نمطين على الأقل من هذه الحكايات أولهما

هو حكاية العجائب التى تدور فى عالم السحر حيث يعيش السحرة والالهة والجن . وثانيهما يدور فى العالم الواقعى ويعتمد فى احداث تأثيره على المهارة والذكاء بشكل عام .. وفى النمط الأول نجد مملكة تسودها اخلاقيات معينة ، أهمها أن العدالة تتخذ مفهوما شعريا أكثر مما فى الشعر نفسه ، وان الرغبة تولد العمل ، وان العمل يدين للرغبة تماما ، بينما النصر فى هـــذه المملكة وقف على المساكين والأبرياء والشجعان والعادلين ، والهزيمة وقف على الأشرار والظالمين .

بل ان هذا النمط من الحكايات الذى يقوم على السحر والمعجزة يبدأ بعـالم الواقع ، حيث نجد الفقراء يعانون ويتعذبون والمساكين يداسون بينما الشجعان والعادلون يولدون وفى أفواههـــم ملاعق من ذهب . وعالم كهذا يتطلب أن تزال العوائق والعقبات ، وأن يبطل العمل بالعقل والمنطق . كما أنه يتطلب الســـحر ، وبالتالى لابد أن تطير الأبسطة وتتنبأ الطيور ، وتطىء أغطية الموائد الطعام دون حاجة الى مطبخ أو طباخ ، وتحفظ الحقائب الرياح ، وتقول المرايا الحق ، ويضع الأوز بيضا ذهبيا ، ويبعث الموتى أحياء ، وتأتى الكلمات بالمعجـــزات اذا تكررت ثلاث مرات .. وهكذا نجد أن التفكير فى الرغبات هو الحكمة الوحيدة ، وأن المعجزات هى الخبز اليومى . ولو أمكن التعميم لكانت الحكايات الشعبية قصص نجـــاح بالمعنى الحديث ، وهو نجاح لا يتحقق بفضل الجدارة أو الاجتهاد ولكنه يتحقق بفضل السحر أو الحظ أو المكر . ولعل فى هذا ما يفسر الاستجابة التى تلقـــاها الحكايات الشعبية لدى جماهير البشرية جمعاء ، ولدى كل انسان تعيس ، معذب ، سيء الحظ .

وثمة أنماط أخرى للحكايات الشعبية بالطبع الى جـــوار حكاية العجـــائب والسحر والأبطال الخارقين والبطلات اللواتى لاينتمين للأرض اذ يوجد بصفة خاصة نوع يعالج امور البسطاء واساليب فهمهم وتخلصهم من المآزق . ولا يدور هـــذا النوع حول أناس ماكرين أذكياء فحسب ، ولكنه يدور أيضا حول الأغبياء والحمقى.

غير أن روجف لا يغفل عن الاشارة الى مظاهر التشـــابه الكثيرة التى نلمسها فى الحكايات الشعبية بشكل عام ، سواء كانت عربية أو فرنسية أو هندية . ذلك لأن ثمة تشابها ـ قد يتضاءل أو يعظم ـ بين عناصر الحكايات وأحداثها ، بحيث اذا ترجمنا الأسماء احيانا وغيرنا الأزياء من لغة الى لغة ، ومن شعب الى شعب ، لما كان هناك فارق كبير .

أما الذى يقل شيوعه فى الحكايات الشعبية فهو الحيوانات . فيبدو أن الشعوب القديمة بلا استثناء كانت تؤمن بوجود علاقة دم تربطها بالحيوانات ، ومن ثمـة ندرت الاساءة الى الحيوان . ففى أكثر أنماط حكاية الحيوان شـــيوعا ، وهى الخرافة ، نجد أن الحيوانات المسكينة تصور على أنها شديدة الصلة بالانسان والانسانية فى تصرفاتها وعواطفها . فهى تعيش فى حقل أو غابة ، لكنها تفكر وتتكلم وتتصرف كالكثير من الرجال والنساء .

ويختتم روجف مقدمته هذه بالاشارة الى حظ الحكايات الشعبية من الشهرة والذيوع ، فيؤكد انها تشتهر وتموت شأنها فى ذلك شأن القصص المؤلفة التى كتبها أدباء محترفون . غير أن أفضل الحكايات الشعبية ، أو على الأقل اشهرها ، لهـــا قدرة على البقاء ، وهى قدرة يندر وجودها فى الأعمال الأدبية ذاتها ولعل هـــذا

سبب امكانية ذيوعها على الدوام فى القصور والبيوت واكواخ الفلاحين ، وفى خيال الفنانين ، وفى نسيج كثير من الثقافات .

لكن ، تبقى مشكلة يثيرها كثيرون من المتحمسين للآداب المكتوبة ، اذ يحسون بأن الحكايات الشعبية سيجىء عليها وقت تلقى فيه الهجر والنسيان ، وربما تترك مكانها تماما للقصص التى يكتبها المحترفون من الأدباء والكتاب ، وذلك كله بفعل انتشار التعليم والثقافة والقضاء على الأمية . لكن مما يحمد للحكايات الشعبية أن كثيرا من قديمها قد عاش وعمر طوال عدة حضارات ، جنبا الى جنب مع عدد آخر لا يحصى من القصص الأدبية التى أبدعها رجال اعتبرهم التاريخ من جهابذة الفن ولا شك أنها ستواصل دوامها طالما أن للناس أحلاما ، وانهم لا يحتاجون لمن يرخص لهم بسرد ما شاهدوه فى أحلامهم .

والحق أن هذه الملحوظات التى أبداها ميلتون روجف فى تقديمه لمنتخبه من الحكايات الشعبية ملحوظات ذكية خرج بها من سياحته الطويلة مع هذا اللون من الابداع الفنى الذى لا ينتمى لمؤلف بعينه ، والذى نجد فى كثير من نماذجه عناصر راقية من الخيال الخصب الخلاق ، والادارة الذكية للمواقف والأحداث ، والحق ايضا أنه لولا وجود هذا اللون لما نشأت القصة القصيرة المكتوبة أو الرواية اللتان افادتا كثيرا من اساليب الحكاية .. الجدة الكبرى لفن القصة .

« باريس »

● آخر جزء من الأعمال الكاملة للكاتب التشيكى فرانز كافكا صدر بالفرنسية عن دار حلقة الكتاب الثمين .. سبق أن أصدرت الدار ٧ أجزاء منها .

« موسكو »

● ظهرت فى موسكو الترجمة الروسية لرواية « الباب المفتوح » للطيفة الزيات . . نقلها عن العربية أ . جورو دتسكايا ول . مدفدكو ، وقدم لها ف . مدفيديف . الطريف أن مجلة الأدب السوفييتى التى نشرت الخبر كتبت اسم المؤلفة محرفا ، فاعتبرتها « لطيفة الزياد » ، وربما لازم الخطأ الترجمة نفسها !

« لندن »

● سلسلة جديدة بعنوان « كتب عالمية » أعلن عنها نادى الكتاب فى لندن .. وتستهل السلسلة حياتها بمجلد من ٤٠٠ صفحة يضم جميع قصص هيمنجواى القصيرة البالغ عددها ٤٩ قصة .. بسعر ٥ شلنات فقط .

« ايرلنـــدا »

● يعيش أنا ! .. عنوان طريف اختاره الكاتب الايرلندى المعروف شون أوفاولين لسيرة حياته التى صدرت عن دار هارث دافيز بلندن ، وفيها يحكى قصة حياته ونضاله فى سبيل قضية بلاده ، واتصاله بأدبائها المعروفين وعلى رأسهم الشاعر وليم بتلربيتس .

« باريس »

● من الترجمات القصصية التى نشرت بباريس رواية « الرأس » للكاتب ارنست أوجثين عن الألمانية وقد نشرتها دار جاليمار ، ورواية « الأشلة » للكاتبة الأمريكية مارى ماكارثى ونشرتها دار جوازيه .

« الاتحاد السوفييتى »

● الرجال يبقون رجالا .. عنوان الرواية الجديدة للكاتب السوفييتى يورى بيليار الذى عرف بروايتم « كل هذا حقيقة » . ومسرح الروايتين هو معسكرات الاعتقال الألمانية زمن الحرب الأخيرة . وقد علقت مجلة الأدب السوفييتى على أبطال بيليار فى روايته الجديدة فقالت : انهم « يعانون ويتعذبون لكنهم لا يفقدون تماسكهم الروحى أو ايمانهم . فهم يتحبطون لكنهم يجدون طريقهم من جديد . ذلك لأن الانسانية تقوى خلال النضال ضد اللاانسانية والضعف .. والمؤلف لا يعلق على الأحداث . ولا تنتهى القصة على طريقة « النهاية السعيدة » التقليدية . فالرجال يبقون رجالا ــ وهذا هو السبب الذى يجعل النصر حليفهم فى النهاية » .